الحجاج مفهومه وأنواعه

(دراسة تطبيقيّة لنماذج قرآنيّة).

الباحثة: مسعودة بايزة

جامعة سيدي بلعباس ـ الجزائر

"غني عن القول أنّ القرآن من هذه النّاحية حجاج صرف، لا لكونه خطابا حواريًّا فحسب، وإنّما لأنّه يدعو بصريح اللّفظ إلى نبذ العنف في شأن الإيمان، وهو ما يقتضي أنّه حوار وحجاج" قدور عمران. البعد التّداولي في الخطاب القرآني إسرائيل

"الحكمة الإلهيّة في اختيار المعجزة من جنس ما اشتهر بين القوم هي أنّ الإنسان إذا أوتي من قِبل ما يعتبره مفخرته ومجال إجادته واعتزازه تكون الحجّة عليه أقوى والمعجز أكثر فعلا وأثرا". مصطفى مسلم. مباحث في إعجاز القرآن

تعدّدت أهداف الإنسان في هذه الحياة، واختلفت طرائقه في الوصول إليها فإذا كان هدفه رضا ربّ العباد، أقام الصّلاة وآتى الزّكاة وقام بباقي العبادات، وإذا كانت له غايات أخراة جعل الكلام وسيلة، والإقناع هدفا، والحجة بيّنة، ولأنّنا حين نتكلّم نقصد إقناع الآخر عقليّا والتّأثير فيه نفسيّا، وإلّا كان كلامنا لغواً. لأنّ الإنسان قبل أن يتكلّم يراعي الأشخاص، والمقام، ويعتني بكلامه وكيفيّة صياغته، وما يتساوق مع ذلك الكلام من حجج ليدعمه إذ «إنّ نقطة البدء في عملية الإقناع هي أهمّ ما في العملية الإقناعيّة، وعلى أساسها تنجح فيما تريد أن تقنع به الآخرين، فإذا كنت مستمعا جيّدا فثق أنّك مقنع جيّد أيضا، فنقطة البدء هي الاستماع الإيجابي»[1] القائم على الحوار، والأخذ والرّدّ، فحتّى نقنع الآخر لا يجب أن نتكلّم كثيرا، ولكن يجب أن نستمع أكثر لنفهم رأي الآخر بكلّ موضوعية، ودون تعصّب فكما يقول خبراء التّنمية البشرية " إنّ الاستماع هو فنّ الإقناع".

كلمة فنّ بما تحويه من أصول وآداب تستوجب مستوى عاليا وكلاما راقيا، وفكرا صائبا، فلا نقاطع أثناء الحديث، فإنّ كثرة المقاطعة تثير الأعصاب، وتجعل الشّخص الآخر يأخذ موقفا سلبيا وروحا عدائيّة تؤثّر سلبا على الحوار وبالتّالي على الإقناع، والنّتيجة فشلنا في إيصال أفكارنا كون «الإقناع هو القوّة الحقيقة الّتي تحقّق لنا ما نصبو إليه، وحتّى نستطيع جذب أكبر عدد ممكن ممّا حولنا، فاقتناع الآخرين بأفكارنا يعتبر دليلا على نجاح عملية الاتّصال»[2] فالفشل والنّجاح هما بأيدينا، ونحن نصنع أسبابها بدءا بعرض الفكرة وانتهاء إلى النّتيجة سواء أكانت إقناع غيرنا أم اقتناعنا بأفكار غيرنا.

كثيرا ما كان الإقناع من المهام الصّعبة الّتي تواجه الأشخاص، فلا بدّ له من أصول ومبادئ تدعمه، فرجاحة العقل لا غنى عنها كما قال الشّاعر:

الرّأي قبل شجاعة الشّجعان هو أوّلا وهي في المحلّ الثّاني

إذن لابدّ من موصفات تتوفّر في الشّخص: كالرّزانة، والهدوء، وسعة الاطّلاع، والقدرة على الحوار، والكثير من الاستماع، إضافة إلى الحجج الّتي يستعملها، وبحديثنا عن الحجج نعرف الحجّة.

I. مفهوم الحجاج:

1) الحجاج لغة:

«الحجّة: البرهان وقيل الحجّة ما دُوفِع به الخصم. قال الأزهري: الحجّة الوجه الّذي يكون به الظّفر عند الخصومة، وهو رجل محجاج أي جدل، والتّحاجّ: التّخاصم، وجمع الحجّة حجج وحجاج، وحاجّه محاجّة وحجاجا: نازعه الحجّة. وحجّه يحجّه حجا غلبه على حجّته ... واحتجّ بالشّيء اتّخذه حجّة ...و الحجّة بمعنى الدّليل والبرهان»[3]

ممّا سبق فالحجّة هي الدّليل والبرهان يؤتى به لغلبة الخصم، ولا فرق بين التّخاصم والتّحاجّ، ولتقريب المعنى بحثنا عن البرهان فوجدنا «الحجّة الفاصلة البيّنة، يقال: برهن يبرهن برهنة، إذا جاء بحجّة قاطعة للّدد الخصم فهو مبرهن، البرهان: الحجّة والدّليل »[4]

أمّا عن الجدل فهو «مقابلة الحجّة بالحجّة، والمجادلة والمناظرة»[5] فمن ناحية اللّغة نجد الحجّة للمغالبة عند الخصومة، والبرهان أقوى من الحجّة، أمّا الجدل فهو الزّيادة في الحجج أي إنّ الجدل هو في المرتبة الأولى لأنّه قائم على أساس المناظرة الّتي تتطلّب دائما المزيد من الحجج، كونها قائمة على وجود المتناظرين، وكلٌّ يريد إثبات رأيه وهذا الإثبات لابدّ له من قدر أكبر من الحجج.

والبرهان لا يقبل النّقاش لأنّه حجّة بيّنة فاصلة، وأمّا الحجّة فهي لمغالبة الخصم، ويمكن الإتيان بحجّة أقوى منها، وهي ليست كالمناظرة، أي قد تغيب أطراف الحوار كأن تكون مكتوبة مثلا.

2) **الحجاج فلسفة:**

«الحجّة في الفرنسية argument وفي الإنكليزية argument في اللاتينية argumentum الحجّة هي الاستدلال على صدق الدّعوى أو كذبها، وهي مرادفة للدّليل»[6]

أي: الحجّة هي الدّليل المقدَّم على الصّدق أو الكذب، وهي تقبل التّصديق والتّكذيب، والحجاج «argumentation: جملة من الحجج الّتي تؤتى بها للبرهان على رأي أو إبطاله، أو هو طريقة تقديم الحجج والاستفادة منها والحجّة أخيرا هي البيّنة، ومنها قولهم البيّنة على المدّعي* onus problandi ومعنى هذا القول إنّ عبء الإثبات يقع على المدّعي لا على المنكر»[7] ، لأنّ الحجاج هو طريقة التّقديم للإثبات في مقابل الدّحض ولا يبتعد هذا التّعريف عن التّعريف اللّغوي.

الحجّة أيضا «ما يراد به إثبات أمر أو نقضه ومن هذا الوجه تكون الحجّة مرادفة للاستدلال، فيقال: إنّ الحجّة هي الاستدلال باطنا و ظاهرا، ومن ثمّ فكلّ ما يقال عن الاستدلال يقال عن الحجّة»[8]؛ لأنّ الاستدلال على الشّيء هو الإتيان بما يثبته أو ينفيه.

من هنا يكون الحجاج في الفلسفة مرادفا للدّليل والاستدلال، وهو للإثبات أي التّصديق أو الدّحض والنّفي أي التّكذيب ويدخل في هذا الجانب القضايا الفكرية لأنّها تحتاج إلى إعمال كبير للعقل (أي الاستدلال).

والحجّة «ما دلّ به على صحّة الدّعوى، وقيل: الحجّة والدّليل واحد»[9] ممّا يتوضّح أنّ إقامة الحجّة لابدّ لها أوّلا من وجود دعوى، وإثباتها أو نفيها يحتاج إلى حجّة أي دليل .

في حين نجد البرهان هو «الحجّة الفاصلة البيّنة...و برهن عليه أقام الحجّة»[10]؛ لأنّ البرهان أقوى من الحجّة «و القدماء لا يطلقون لفظ البرهان إلاّ على الاستنتاج العقلي الّذي تلزم فيه النّتيجة عن المبادئ اضطرار، أمّا المحدثون فيطلقون هذا اللّفظ على الحجّة العقليّة والحجّة التّجريبيّة معا، والمقصود بالحجّة التّجريبيّة الحجّة الّتي تسند إلى التّجارب والأشياء والحوادث كحجّة الأستاذ الّذي يبرهن على صحّة القانون العلمي بإقامة التّجارب في الصّفّ، أو كحجّة المحامي الّذي يثبت صحّة دعواه بإبراز بعض المستندات، أو تبيين بعض الحوادث»[11] من خلال أشياء مادّية ملموسة.

من خلال ما سبق نلاحظ أنّ البرهان متعلّق بالجانب الفكري/ العقلي من حيث وجود مقدّمات تلزم عنها نتائج اضطرارية.

نعطي تعريفا آخر لمصطلح مقارب هو الجدل «في الفرنسية" Dialectique" وفي الانكليزية"Dailictic " وأصله في اليونانية "Dailiktiké جدل جدلا اشتدّت خصومته، وجادله مجادلة وجدالا ناقشه وخاصمه...و الجدل في الأصل فنّ الحوار والمناقشة»[12] والفنّ هنا بمعنى القدرة على الإتيان بالحجج وتسيير الحوار لصالح أحد الطّرفين، و«معنى ذلك أنّ الأقاويل الجدلية تهدف إلى أمرين: أحدهما أن يلتمس السّائل بالاستناد إلى الأشياء المشهورة والمسلّمة إلزام الخصم وإفحامه، والثّاني أن يلتمس إيقاع الظّنّ القوّي في رأي قصد تصحيحه حتّى يوهم أنّه يقيني»[13]، كون الجدل يهدف إلى مغالبة الخصم بقوّة الحجّة بعيدا عن المضمون سواء كان صادقا أم لا، فالمهمّ بالنّسبة للمجادِل هو الجدل بذاته، والتّفنّن في الإتيان بالحجج.

ممّا خلصنا إليه من التّعريفات الفلسفيّة:

- أنّ الحجاج هو طريقة تقديم الدّليل على صدق أو كذب دعوى ما، وهو الاستدلال.
- البرهان أقوى من الحجّة، وهو متعلّق أكثر بالقضايا العقليّة (الفكريّة).
- الجدل إبراز أقوى الحجج بهدف التّفوّق على الخصم.

3) **الحجاج اصطلاحا:**

وهو بعض ما تعارف عليه أهل اللّغة المحدثون« فلفظة الحجاج لا تعنى البرهنة على صدق إثبات ما، أو إظهار الطّابع الصّحيح valide لاستدلال ما من وجهة نظر منطقيّة»[14] أي إنّ الحجاج هو استدلال غير عقلي، فوجود مقدّمات لا يلزم عنه ضرورة نتائج يتّفق عليها الجميع، لكنّها نتائج محتملة توصّل إليها شخص ما، يمكن ردّها أو الإضافة إليها أو الخروج بغيرها، والحجاج يتمثّل «في تقديم مجموعة من الحجج والأدّلة الّتي تخدم النّتيجة المقصودة والغاية المتوخّاة»[15] حيث إنّ النّتيجة خاضعة للتّداول ويفرضها منطق الخطاب، فإذا أعطينا مثالا نقول:

- **التّعليم رسالة إنسانيّة** (مقدِّمة / حجّة) نقترح لها نتائج محتملة .
- إذن تحتاجها في حياتك
- يمكنك امتهانها
- توجيه أبنائك إليها
- كغيرها من الرّسائل الإنسانيّة (الطّبّ مثلا)
- شريفة وسامية

إلى غير ذلك من النّتائج المحتملة

الحجاج إذن لا يستلزم نتيجة واحدة، ولكنّ الأقوال "المقدّمات" هي الّتي توجّهه نحو النّتيجة الّتي يريدها صاحب الخطاب، وهو «تقديم الحجج والأدلّة المؤدّية إلى نتيجة معيّنة، وهو يتمثّل في إنجاز تسلسلات إستنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى يتمثّل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللّغويّة، وبعضها الآخر هو بمثابة النّتائج الّتي تستنتج منها»[16] لأنّ الخطاب وكيفية بنائه هو ما يحدّد النّتائج والمقدّمات، فنجد مجموعة من المقدّمات تخدم نتيجة واحدة، ونجد مقدّمة واحدة تخدم مجموعة من النّتائج، الأساس في ذلك مقصدية صاحب الخطاب، وكذلك تداول الناس له .

كما نشير إلى أنّ الحجاج لا يقتصر على مجال واحد، ولكنّه في «كلّ أنماط الخطاب وأنواع النّصوص: نجده في الخطبة الدّينيّة والقصائد الشّعريّة والمحاورة اليوميّة، والمفاوضات التّجاريّة واللّافتة الإشهاريّة والخطاب السّياسي ومرافعة المحامي والرّواية والمسرحية الأدبيّة والمناظرات والمناقشة الأطروحات الجامعية والكتابات العلميّة وغيرها»[17] حيث إن هدفها واحد، وهو إقناع الآخر بوجهة نظرنا لذا لابدّ من حشد الحجج لبلوغ هذه الغاية.

أمّا الحجاج باعتباره محتوى فهو ليس بالجديد، لأنّه يسير معنا، ونوظّفه دائما، كما له علاقة وطيدة بالخطابة الّتي هي خطاب شفوي يحتاج إلى قدرة أداء وكفاءة معرفيّة تجعل للخطيب هيبته ومكانته بين النّاس، إذ لا بدّ له من حجج تقنع السّامع ولغة تأسره وتبقيه على اتّصال دائم به، وحتّى لا يُملّ من الاستماع إليه، فهذه حال إنسان يخاطب غيره من البشر، فكيف إذا كان الكلام من ربّ البشر ؟

II. أنواع الحجاج في القرآن الكريم:

لن نتطرّق هنا إلى معنى كلمة الحجّة[*] في القرآن، لأنّ كتب التّفسير- مثلا - شرحت وأوّلت المعنى، والّذي نريده في هذا السّياق هو الجانب التّطبيقي أي الحجج الموظّفة في القرآن الكريم، بعد أن عرّفناها سابقا .

فكلام الله يختلف عن كلام البشر من ناحية القيمة، لأنّ الله سبحانه يريد أن يعلّمنا. واستعمالُ الحجاج «هو البديل عن العنف»[18]، ففي إبراز الحجج وعرضها وفهمها حوار فكريّ عميق يجنّبنا اللّجوء إلى الخصومات اللّفظيّة والاشتباكات الجسديّة، إنّه أسلوب حضاريّ في التّواصل و«غنيّ عن القول أنّ القرآن من هذه النّاحية حجاج صرف، لا لكونه خطابا حواريّا فحسب، وإنّما لأنّه يدعو بصريح اللّفظ إلى نبذ العنف في شأن الإيمان، وهو ما يقتضي أنّه حوار وحجاج»[19]، يعرض حججه على النّاس، ويصغي لحججهم حتّى يأتيهم بما هو أقوى منها .

القرآن نزل للبشر كافّة، فهو يراعي مستوياتهم، والله أعلم بما في نفوسهم، حيث يهدف الخطاب القرآني «إلى إحداث أثر معتدل في المتلقّي وذلك بالاستحواذ على وجدانه واستدراجه إلى

الاقتناع بقيمة دينيّة أو تبنّي وجهة أخلاقيّة بالتّوجّه إلى عاطفته كما يهدف من وجهة أخرى إلى إحداث أثر قوي في المتلقّي بإثارة مشاعر الخوف والشّفقة فيه، وهذا ما نلمسه في أخبار بني إسرائيل مع أنبيائهم منذ عهد موسى عليه السّلام»[20] وحتّى وقتنا الحالي هناك من يجادل في الله وهو شديد المحال، فالله جلّ علاه أنزل الحجج متساوقة مع المواقف، وحيث شاع شيء واشتهر أعجزهم الله فيه، ففي عهد سيّدنا موسى عليه السّلام اشتهر السّحر فردّه الله بعصا سيّدنا موسى عليه السّلام، أمّا الطّبّ فكان في عهد سيّدنا عيسى عليه السّلام الّذي أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا اللهُ على يديه الموتى وقبل «بعثة خاتم النّبيين بلغت الفصاحة والبلاغة وفنون القول شأوا بعيدا وأخذت الكلمة مكانا في نفوس العرب من التّقديس والتّعظيم لم يبلغه شيء آخر، ممّا حدا بهم أن يعلّقوا المعلّقات السّبع في جوف الكعبة، وإذا علمنا أنّ الكعبة كانت تعتبر أقدس مكان عند العرب في جاهليّتهم أدركنا مكانة الكلمة في نفوسهم»[21]، إذن هي حكمة الله في اختيار الحجج .

لعلّنا نطرح عديد التّساؤلات في سرّ هذه الحجج وتماشيها مع ما هو شائع فعلمنا أنّ « الحكمة الإلهيّة في اختيار المعجزة من جنس ما اشتهر بين القوم هي أنّ الإنسان إذا أوتي من قِبل ما يعتبره مفخرته ومجال إجادته واعتزازه تكون الحجّة عليه أقوى والمعجزة أكثر فعلا وأثرا»[22] ولا يجد من أقيمت عليه الحجة سبيلا للادّعاء بأن هذا لا يعرفه وليس من اختصاصه، وليتيقّن أنّه من عند الله، ولو كان من عند بشر لكانوا قادرين عليه .

إذن تنوّعت حجج الله تعالى وأَوْدَعَ كتابَه الكريمَ أخبارَها لذلك فإنّه «يمكن اعتبار القرآن الكريم نصّا حجاجيّا بامتياز، باعتباره يطرح أمرا أساسيا يتمثّل في عقيدة التّوحيد، ويسعى إلى تثبيت أركان هذه العقيدة ويقدّم الحجج المدعّمة لهذا الأمر»[23] ويدحض الحجج المضادّة ويحقّ الحقّ بكلماته ويبطل الباطل، ولتكون «معجزة النّبي الخاتم أشدّ لمعانا وأسطع برهانا فقد جعل الله معجزته كتابا متلوًّا معجزا وهو الإنسان الأُمّيّ الذي لم يخطَّ بيده كتابا ولم يتلقَّ من أحد من البشر معرفة»[24]، إنّما أنزل إليه الوحي من ربّ البشر، ليُعجز به أهل البلاغة والفصاحة، ويكون حجّة عليهم حتّى يوم القيامة .

فيما سيأتي نعرض بعض الحجج الواردة في القرآن الكريم:

1) الحجاج اللّغوي:

هو الحجاج الّذي يعتمد أساسا على اللّغة «و معلوم أنّ الحجّة تقدّم بطرق عديدة ومتنوّعة بحسب الرّابط الّذي تمّ توظيفه في الجملة»[25] ودراسة الحجاج اللّغوي تنتمي إلى «البحوث الّتي تسعى إلى اكتشاف منطق اللّغة، أي القواعد الدّاخلية للخطاب، والمتحكّمة في تسلسل الأقوال وتتابعها بشكل متنام وتدريجي وبعبارة أخرى فإنّ الحجاج يتمثّل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب»[26] ممّا يجعل دراسة الحجاج هي البحث عن منطق الخطاب وأساس اختيار الحجّة، وكذا التّرابط الّذي تقوم عليه، وختاما النّتيجة الّتي يبزها الخطاب، أو يضمرها ويترك للمتلقّي اكتشافَها، وتبرز قيمة الحجج في اللّغة حسب طريقة توظيفها «و ينبغي أن نميّز بين صنفين من المؤشّرات والأدوات الحجاجية: الرّوابط الحجاجيّة les connecteurs، والعوامل الحجاجية les opérateurs، فالرّوابط الحجاجية تربط بين قولين، أو بين حجّتين على الأصحّ (أو أكثر)، وتسند لكلّ قول دورا مجدّدا داخل الإستراتيجية الحجاجيّة العامّة، ويمكن التّمثيل للرّوابط بالأدوات التّالية: بل، لكن، حتّى، لاسيما، إذن، بما أنّ، إذ...الخ.

أمّا العوامل الحجاجيّة فهي لا تربط بين متغيّرات حجاجية (أي بين حجّة ونتيجة أو بين مجموعة من الحجج)، ولكنّها تقوم بحصر وتقييد الإمكانيات الحجاجيّة الّتي تكون لقول ما.و تضمّ مقولة العوامل أدوات من قبيل: ربّما، تقريبا، كاد، قليلا، كثيرا، ما..إلّا، وجلّ أدوات القصر»[27] الّتي تسهم في صناعة الخطاب كلّ حسب وظيفته.

بما أنّ «الحجاج اللّغويَّ هو منطق اللّغة، وهو المنطق الطّبيعي الّذي نجده في كلّ اللّغات البشريّة، ونجده في كلّ النّصوص والخطابات الّتي تنجز باللّغة الطّبيعيّة بمختلف أنواعها وأنماطها»[28] بعيدا عن المنطق العقلي أو الفلسفي الخاضع للتّركيب والتّحليل، فمنطق اللّغة هو طريقة صياغة الخطاب ومقصدية صاحبه، وأكثر من هذا تداول الأشخاص له، كلّ حسب فهمه وتأويله، لذا فالحجاج اللّغوي لا يفرض منطقا صارما لا يمكن ردّه، لكنّه يعطي احتمالا لما تمّ عرضه، يمكن

قبوله أو رفضه أو الإتيان بما هو أقوى منه، وبما أنّ القرآن الكريم «خطاب إلهي كُتِبَ بلغة طبيعيّة هي اللّغة العربية وهو موجّه إلى كافّة البشر، فهو إذن خطاب طبيعي يحكمه المنطق الّذي يحكم الخطابات الطّبيعيّة، وبعبارة أخرى فهو خطاب يقوم على الحجاج والمنطق الطّبيعي والاستدلال غير البرهاني»[29]، فهو يخاطب البشر بمختلِف مستوياتهم لكنّه أيضا حدّثنا عن حجج غير لغويّة كانت مع الأمم السّابقة، لذلك سنحاول طرقَ هذه الحجج.والفصلُ الشّكلي أثناء البحث بين الحجج لا يعني الفصلَ التّامّ ولكنّه قصد إبراز بعض الجوانب في القرآن، ولكنّه في بعض الأحيان جمع بينهما في سياق واحد وجعلها متفرّقة في سياقات أخراة .

أ- الحجاج اللّغوي المعتمد على الرّوابط:

المثال 1 :

يقول تعالى: ﴿ **أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ولَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[30] بداية هذه الآية ﴿**ألا إنّ الله ما في السّماوات والأرض**﴾مقدّمة تخدم نتائج من قبيل:

- انتظار كرمه وعطائه
- الإيمان به وحده
- قادر على كلّ شيء

و قوله ﴿**ألا إنّ وعد الله حقّ**﴾ مقدّمة أخرى تخدم نتيجة من قبيل «سيقوم النّاس بواجبهم، أو سيطيعون ويتّقون»[31]، ويمكن أن نضيف نتائج محتملة:

- خشية الله " خوفا من النّار "
- الثّقة في الله "أملا في الجنّة"
- انتظار الوعد " الوعد حسب الموقف "
- الامتثال لأوامره

فهذه مقدّمات (أي حجج) وضعنا لها نتائج احتمالية، فما هي النّتيجة الّتي يريد القرآن إبرازها بعد هذه الحجج ؟ القرآن يورد حجّة أخرى بعد الرّابط لكنّ، وهي في هذا المثال «لكنّ الحجاجية، فهناك تعارض حجاجي بين ما يتقدّم الرّابط وما يتلوه»[32]، فإنّنا لا نجد نتيجة ممّا توقّعناه وإدراج الرّابط "لكنّ " ساهم في هذه النّتيجة و**لكنّ أكثرهم لا يعلمون**

يبين هذا أن أغلبهم يجهلون، لكن يجهلون ماذا ؟ إذن فالقول عائد على ما سبق، أي إن "بعض" الناس يعلمون أنّ لله ما في السّماوات والأرض، وأنّ وعد الله حقّ غير أنّ "أكثرهم" لا يعلمون، فغيّرت "لكنّ" النّتيجة نحو النّتيجة « المضادّة للنّتيجة السّابقة...أي تخدم نتيجة من نمط النّاس غافلون " أو لن يطيعوا ربّهم ولن يتّقوه، وبما أنّ الحجّة الثّانية (الواردة بعد لكن) أقوى من الحجّة الأولى (الواردة قبل لكن)، فإنّها ستوجّه القول بمجمله نحو النّتيجة لا – ن (أي النّفي النّتيجة)»[33] فهي غفلة النّاس رغم بيان الآيات.

المثال 02

يقول تعالى: ﴿**وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ**﴾[34] الحجّة في قوله ﴿ **إنّ الله لذو فضل على النّاس** ﴾ لها نتائج محتملة من قبيل:

- قولا: الحمد والشّكر باللّسان
- شكر النعم فعلا: التّصديق (جزاءُ الإحسانِ الإحسانُ)
- الدعاء بدوامها

المألوف والمنطقي أن يشكر الإنسان صاحب الفضل عليه، ليجيء الرّابط "لكن" يعرض حجّة مضادّة وغير متوقّعة، ويستدرك الإيجاب بالنّفي، حيث إنّ أكثرهم لا يشكرون أي ينكرون جميل الله ونعمه لغفلتهم.

* فضل الله على عباده (إثبات – إيجاب)، لا يشكرون (نفي) والنّتائج مضمرة من قبل:

- اعتبروا

- اشكروا حتّى تدوم النّعم ولا تزول

- اشكروا في الدّنيا قبل الآخرة.

- اشكروا حتّى يزيدكم من فضله وهو ذو الفضل.

الله وذو فضل على النّاس «حيث أنعم عليهم بالعقل، ورحمهم بالوحي، وتعليم الحلال والحرام، ولكنّ أكثرهم لا يشكرون هذه النّعمة ولا يتّبعون ما هدوا إليه» [35] إمّا لغرقهم في النّعمة فيطغون، أو لغفلتهم واستهانتهم بالنّعم، فكم مريضٍ لله شاكرٌ، وكم معفى للنعم منكرٌ.

المثال 03

يقول تعالى: ﴿**وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾[36]

يعود الضّمير "هم" في "قولهم" على أهل الكتاب حسب سياق السّورة ﴿**يسألك أهل الكتاب**... ﴾ النّساء 153

نلمس في بداية الآيات مفارقة إذ إنّ أهل الكتاب لا يؤمنون بأن عيسى هو رسول الله، فكيف قالوا إنّا قتلنا المسيح ابن مريم رسول الله؟ نقول إنّهم «قالوه: على وجه الاستهزاء»[37] أي حسب زعمهم: هذا الّذي يدَّعي أنّه رسول الله قُمْنَا بقتله، وسبب محاولة قتلهم له يعود إلى أنّ «رهطا من اليهود سبّوه وسبّوا أمّه فدعا عليهم " اللّهم أنت ربّي وبكلمتك خلقتني، اللّهم الْعَنْ من سبّني وسبّ والدتي" فمسخ الله من سبّهما قردة وخنازير، فأجمعت اليهود على قتله، فأخبره الله بأنّه يرفعه إلى السّماء ويطهّره من صحبة اليهود، فقال لأصحابه أيّكم* يرضى أن يلقى عليه شبهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنّة ؟» [38] فالله جلّ علاه أراد أن يعرض بدايةً قول أهل الكتاب ويبسط حجّتهم ليردّ عليهم ونوضّح ذلك كالآتي:

قول بني إسرائيل	حجّة الله عليهم
إنّا: توكيد ويقين	شبّه لهم، ظنّ

قتلنا المسيح عيسى ابن مريم	ما قتلوه وما صلبوه (نفي)
اختلاف واتّباع الظّنّ	رفعه الله إليه
نتيجة قولهم وادّعائهم	حجّة خاتمة من الله

نفى الله حجّة اليهود بقتل عيسى عليه السّلام، وعرض حجّة أقوى بواسطة الرّابط "لكن" حيث إنّهم لم يقتلوه ولم يصلبوه هو، ولكن شبّه لهم، (قتلوا، لكن غيره)، فالله لم يَنْفِ فعلَيْ القتل والصّلب، ولكن نفى وقوعهما على سيّدنا عيسى عليه السّلام، فقولهم بالقتل نتيجة تغلّبهم وقوّتهم، وقول الله بعدم القتل والصّلب نتيجة قوّة الله ورعايته لأنبيائه، حيث شبِّه لهم و«لكن هنا إبطالية، فهي عبّرت عن معنى التّعارض والتّنافي بين ما قبلها وما بعدها والملفوظ يوحي بأقوال مضمرة من قبيل أنّ اليهود الّذين زعموا قتلهم المسيح في زمانهم قد شُبِّه لهم مُشَبَّهٌ بالمسيح فقتلوه، ونجّى الله المسيح من القتل والتّبئير في هذا الملفوظ وقع على الفعل المبني للمجهول (شُبه) وحذف المفعول الّذي من حقّه أن يكون نائب فاعل للفعل لغاية حجاجية، وهي إبراز حدث المشابهة والمماثلة في الصّورة دون ذكر المشبّه والمشبّه به، لأنّ العبرة في حدث التّشبيه، وبهذا تتغيّر نتيجة الخطاب»[39] من تأكيد القتل إلى حدث التّشبيه الّذي هو المركز وأساس اختلاف أهل الكتاب إلى يومنا بين مؤكّد القتلَ وبين نافيه، وبين منتظر عودة المسيح المخلِّص.

بعد نفي القتل والصّلب واختلاف أهل الكتاب، يأتي الله بحجّة غير منتظرة وبالرّابط "بل" لإبطال ما ورد سابقا حيث يقول: " بل رفعه الله إليه" إذ يتساءل أحد: إن كان لم يُقتل ولم يُصلب، فمن الّذي قُتل ؟ فيجيب تعالى "شبّه"، فيزيد: وأين ذهب المسيح ؟ فيجيب تعالى: "بل رفعه الله إليه" إذ نلمس صيغ الأسئلة والأجوبة في هذه الآية، فيأتي الله بالحجج متتابعة قويّة، أقواها الرّفع، حيث لا يدلي النّصّ القرآني « بتفصيل في هذا الرّفع أكان الجسد والرّوح في حالة الحياة أم كان بالرّوح بعد الوفاة وقد ورد في سورة أل عمران " إذ قال الله يا عيسى إنّي متوفّيك ورافعك إليَّ*".و تضاربت آراء المفسّرين في تأويل معنى الوفاة، فمنهم من أوّلها بجعله حيّا حياته الأولى ومنهم من أبقى الوفاة على ظاهرها... والمؤكّد أنّ اليهود لم يقتلوا عيسى عليه السّلام بل رفعه الله إليه ونجّاه

منهم، فالرّفع إبعاده عن هذا العالم إلى عالم السّماوات و"إليه" أفادت الانتهاء المجازي بمعنى التّشريف، أي رفعه رفعَ قربٍ وزلفى»[40]

لم تقف الحجج عند هذا الحدّ، فأراد جلّ علاه أن يثبت ما حدث فقال: " **وكان الله عزيزا حكيما**" وهو تذييل و«التّذييل في بعده الحجاجيّ هو عدول بالزّيادة ...و التّذييل تعبير عن العامّ، وهو بمثابة الحجّة، والحجّة في هذا التّذييل هي أنّ الله عزيز وحقّ لعزّه أن يعزّ به أولياءه، وهو حكيم، فقد أتقن صنع هذا الرّفع (رفع عيسى) فجعله فتنة للكافرين وتبصره للمؤمنين»[41] إذ إنّ الله لا يرضى لأوليائه الذّلّ فأكرم سيّدنا عيسى عليه السّلام برفعه إليه، وهو حكيم في رفعه إذ سينزل مرّة أخرى ليكسر الصّليب ويعلم من يتّبعه ممّن ينقلب على عقبيه.

المثال 04

يقول تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى، وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى، بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنِيَا، والآَخِرَةُ خَيْرٌ وأَبْقَى، إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ ومُوسَى**﴾[42]

بداية الآيات بأداة التّحقيق "قد" أي إنّ الفعل بعدها واجب التّحقيق والفعل هو "أفلح"، أمّا فاعله فمتعدّد (المتزكّي، ذاكر الله، المصلّي) والفلاح نتيجة لها أسباب.

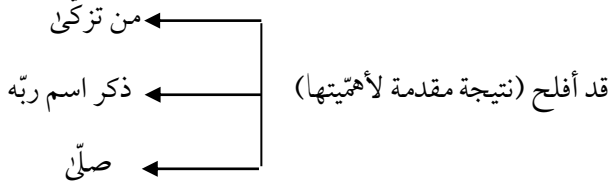

إذن من قام بهذه الثّلاثة أفلح، وتزكّى بمعنى: «تطهّر من الشّرك والمعاصي» [43]، فقد بين الله لعباده طريق الفلاح المؤكّد، فالمنتظر هو اتّباع هذا السّبيل، غير أنّ النّاس لا يتّخذون طريق الفلاح ويفضّلون الحياة الدّنيا فيسعَوْن لها سعيها، ويذرون الآخرة من خلال قوله تعالى " **بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى**" فتَلَهِيهِمْ عن الآخرة، وانشغالهم بالدّنيا عبر عنه الرّابط "بل" الّذي أفاد هنا «الانتقال من غرض إلى غرض»[44] فبَعْد الحديث عن سُبل الفلاح انتقل إلى إيثار النّاس للدّنيا، و هذا لا يعني الفصل بين الغرضين بل الرّبط غير أنّ الثّاني أقوى، وفي هذا تنبيه للنّاس في القرآن وقد

سبق التّنبيه إليه في صحف إبراهيم وموسى، وما زال النّاس يفضّلون الدّنيا على الرّغم من أنّ الآخرة خير رزقا وأبقى زمنا، فما بال النّاس لا يعتبرون ؟

المثال 05

يقول تعالى: ﴿**كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (52) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53) كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (54)**﴾[45]

أنعم الله على آل فرعون، فلمّا بعث إليهم سيّدنا موسى عليه السّلام كفروا به وبما جاء به، فسخط الله عليهم، لأنّ الكِبْرَ تسلّل إلى نفوسهم، فغير الله حالهم وأغرقهم بذنوبهم وظلمهم، وهذه الحال تشبه عبدة الأصنام قبل بعثة الرّسول صلى الله عليه وسلم « فلمّا بعث الله إليهم بالآيات البيّنات فكذّبوه وعادَوْه وتحزّبوا عليه ساعين في إراقة دمه، وغيّروا حالهم إلى أسوأ ممّا كانت، فغيّر الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعالجهم بالعذاب»[46] إذ هم لم يشكروا نعمة الله فأثابهم الله بذنوبهم واستعملت حتّى في هذه الآيات للحجاج والإقناع، ونوضّح ذلك كالأتي:

السّبب: تغيّر ما بالنّفس ⟵ النّتيجة: تغيّر النّعمة

عكس السّبب: ثبات ما بالنّفس ⟵ عكس النّتيجة: دوام النّعمة

إذن فشرط دوام النّعمة هو دوام حال النّفس، وأن الله لن يغيّر النّتيجة "دوام النّعمة " ما لم يتغيّر السّبب أو الشّرط "حال النّفس " وأنّه بالحمد تدوم النّعم، ومن كان في نعمة ولم يشكر خرج منها ولم يشعر.

أبرزت "حتّى " عدالة الله سبحانه وتعالى، وأنّه إذا منح فلن يأخذ إلّا إذا رأى القوم يكفرون بها، وهذا تنبيه للنّاس كافّة، وليأخذوا العبرة ممّن سبقهم، وأنّ الله على كلّ شيء قدير، يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء .

ب-الحجاج اللّغوي المعتمد على العوامل:

- المثال 01

يقول تعالى: ﴿ **مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ** (75) ﴾[47]

المسيح كلمة الله وميلاده حجّة، ففي «عصر اليونان ازدهر الطّبّ والفلسفة المبنية على الأسباب أيضا، فكانت معجزات عيسى عليه السّلام من جنس ما اشتهر في هذا العصر:

فكانت ولادته إبطالا صارخا لهذه النّظرية، فإنّ المعتاد في حياة الكائنات الحيّة، أنّ المولود يولد من أبوين، فجاء عيسى عليه السّلام من غير أب فكان ذلك خرقا للأسباب الطّبيعية الجارية»[48] لأنّ مسبّب الأسباب هو الله، وقادر على تغييرها وتجاوزها، فالمسيح ليس ابن الله كما يدّعون، ولكنّه ابن مريم عليها السّلام، وهو ووالدته كسائر البشر، غير أنّه يتميّز عنهم بالرّسالة، حين قصرها الله عليه في قوله: **مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ**، وقد خلت من قبله الرّسل « صفة لـ "رسول"، أي ما هو إلّا رسول من جنس الرّسل الّذين خلوا من قبله جاء بآيات من الله كما أتوا بأمثالها، أن أبرأ الله الأبرص وأحيا الموتى على يده، فقد أحيا العصا وجعلها حيّة تسعى، وفلق بها البحر وطمس على يد موسى، وأن خلقه من غير ذكر، فقد خلق آدم من غير ذكر وأنثى»[49] فلكلّ نبي معجزة، و سيّدنا عيسى عليه السّلام هو بذاته معجزة ولد من غير أب، وكلّم النّاس في المهد.

أداة القصر "ما... إلّا" أضافت قوّة حجاجية للقول، لأنّ الإخبار هو: المسيح ابن مريم رسول، والنّتيجة: بما أنّه رسول كغيره من الرّسل وله معجزاته كما لهم فلم تمارون فيه ؟ وأمّه «مصدّقة للأنبياء كالصّحابة، فهما بمنزلته البشريين أحدهما نبي، والأخر صحابي، فكيف يوصفان بغير هذه الأوصاف ؟ وهما يأكلان الطّعام الّذي يسري في جسم من لحم وعظم كغيره من أجسام البشر، فهذه آيات على بطلان قولهم، فكيف يُصرفون عن استماع الحقّ»[50] وفي توكيد ما سبق وجهان:

1/ *المسيح رسول (معنى مباشر):

- ليس إلها

- ليس مَلَكا

- يحمل رسالة كغيره من الرّسل

- له معجزات كما لغيره من الرّسل

2/ * المسيح (معنى كنائي):

- يأكل الطّعام (بشر مثلكم) وكناية عن غيره من أعمال البشر، وما ينتج عن الأكل

– خُلق من غير أب(وآدم من غير أبوين والثّانية أعجب من الأولى).

– ابن مريم عليها السّلام وليس ابن الله

ختاما فإن أداة القصر "ما...إلا" قلّصت الإمكانات الحجاجيّة إلى نتيجة واحدة هي " المسيح بشر رسول فآمنوا".

المثال 02

يقول تعالى: ﴿**وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرً**﴾[51]

بعث الله النّبيين مبشّرين ومنذرين إلّا أنّ النّاس ما جاءهم الله بحجّة إلّا ردّوها وأرادوا أقوى منها، لكنّهم يردّونها بأقبح الأعذار وهذا واحد منها، حين امتنعوا عن الإيمان بسبب أنّ المرسَل هو بشر رسول، وما هي إلّا «شبهة تجلجلت في صدوهم وهي: إنكارهم أن يرسل الله البشر، والهمزة في "أبعث الله" لإنكار»[52] لأن الله لو أرسل إليهم مَلَكا ما آمنوا به، كما لم يؤمنوا للبشر الرّسول.

غير أنّ الله يعلم ما بأنفسهم ويعرف قدراتهم العقليّة فيجيبهم" **لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنّين لنزّلنا عليهم من السّماء مَلكا رسولا"**، فإذن أنتم موجودون على الأرض ولستم في السّماء، وأنتم بشر ولستم ملائكة لذا أرسلنا إليكم بشرا لا مَلكا، يعني:

* لو كنتم ملائكة ـــ لأرسلنا إليكم مَلكا(امتناع، لو: حرف امتناع لامتناع.امتناع إرسال المَلَك لامتناع وجود ملائكة على الأرض).

* لكنّكم بشر ـــ فأرسلنا إليكم بشرا (تحقّق بسبب التّوافق).

و ما أنكرتموه هو المنكَر عند الله إذ وكيف أنتم بشر تريدون مَلَكا، ولأنّ الله خبير بصير بالعباد قرّر: لو أرسل إلى البشر ملائكة لقالوا: هم ليسوا مثلنا، إنّهم مَخْلُقون من نور، لا يأكلون ولا يشربون، ولا ينامون، ولا يعصون الله ما أمرهم "إذن فيهم صفات الملائكة" فكيف نكون مثلهم ؟ كيف يكونون قدوتنا وهم خير منّا منذ الخلق، وهم يفعلون ما يعجز عنه البشر ؟

لذا بعث الله النّبي بشرا، لتكون له تصرّفاتهم من أكل وشرب ومشي في الأسواق، وليس الانعزال حتّى يكون قدوتهم ومثلهم (يمكنهم التّمثّل به صلّى الله عليه وسلّم في أفعاله وأقواله)، إذن هناك تكافؤ في الفهم، لأن الله أدرى بعباده وبطبيعة تركيبهم وفهمهم من هنا يتّضح قوله تعالى في سياق آخر "رسولا منكم*" أي ليس غريبا عنكم.

كما أنّهم في الآيات السّابقة طلبوا إليه أمورا تعجيزية لا يقدر عليها بشر ﴿**وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا**﴾[53]

فما طلبوه لا يقدر عليه بشر، أو بالأحرى لو كانوا عاقلين سيعلمون أنّ هذه الأمور لا تُطلب من بشر لاستحالتها، لكنّ الله قادر عليها غير «أنّ المراء والعناد واضح في مطالبهم، ولو أنّ هذه الخوارق* وقعت كما اقترحوا ما كانت بالّتي تقنعهم، فإن الله يضلّ من يشاء، فلا يؤمن ولو أجيب إلى ما يقترحه من الآيات، ويهدي إليه من أناب فيؤمن بغير اقتراح آيات»[54]، فهذا كلّه دليل على امتناع إيمان البشر لسبب لا مبرّر له ولهذا يطلب الله من نبيّه أن يقول" **سبحان ربي هل كنت إلّا بشرا**

رسولا"، فإن الله قادر على هذا، والرّسول يقول: هل كنتُ، بمعنى أنّ النّبي في حقيقته بشر يحمل رسالة فقط، لكن بهذه المطالب تريدونه إلها أو مَلَكا، لأنّه لا قدرة للبشر على هذا.

أمثلة أخرى عن الحجاج اللّغوي:

يقول تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾[55]

هذه حجّة الله على الّذين أشركوا وقالوا إنّ لهم الدّار الآخرة، فالله يمتحن إيمانهم حيث يقدّم لهم شرطا إن حقّقوه فهو صدق أقوالهم.

- فعل الشّرط ⟵ إن كانت لكم الدّار الآخرة عند الله خالصة من دون النّاس
- جواب الشّرط ⟵ فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين

يعني إن كانت أقوالكم صادقة فيجب أن تصدق أفعالكم لأنّ «من أيقن أنّه من أهل الجنّة اشتاق إليها وتمنّى سرعة الوصول إلى النّعيم والتّخلّص من الدّار ذات الشّوائب»[56] وما عادت الدّنيا تهمّه ولا حاجة له بها، فيطلب الموت لأنّه طريق إلى الدّار الآخرة وبالتّالي الجنّة، لأنّ الإيمان ما وقع في القلب وصدّقه الفعل، وهنا يبرز التّناقض بين أقوالهم وأفعالهم فهم لهم الدّار الخالصة حسب زعمهم لكنّهم لا يتمنّون الموت لماذا؟ لأنّهم يعلمون يقينا أنّهم ليسوا من أهل الجنّة والسّبب ما قدّمته أيدهم (أفعالهم)، فما فعلوا فعلا يؤهّلهم لأن تكون لهم الدّار الآخرة، لذلك نفى الله عنهم تمنّي الموت قطعا (لن ...أبدا)، ويضيف حجّة أخرى وهي حرصهم على الحياة الدّنيا والتّعمير فيها دون تذكّر الموت.

إن كان هناك صدق في القول ⟵ لهم الدّار الآخرة خالصة.

فهناك كذب في الفعل ⟵ لا يتمنّون الموت، حريصون على الحياة، يودّون لو يعمّرون ألف سنة.

قول لا يصدّقه الفعل يعني عدم صدق القول، فليست لهم الدّار الآخرة من دون النّاس، لأنّ اليهود يظنّون أنّهم أبناء الله وأحبّاؤه وهناك آيات أخر في السّياق ذاته يقول فيها تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[57]، فالكلام موجّه لليهود لإقامة الحجّة عليهم، وإبطال حجّتهم، إذ لا أساس لها من الصّحّة أي «إن كان قولكم حقّا وكنتم على ثقة فتمنّوا على الله أن يميتكم وينقلكم سريعا إلى دار كرامته الّتي أعدّها لأوليائه، ثمّ قال " ولا يتمنّونه أبدا" بسب ما قدّموا من الكفر وقد قال لهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم "و الّذي نفسي بيده لا يقولها أحد منكم إلّا غصّ بريقه" فلولا أنّهم كانوا موقنين بصدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لتمنّوا، ولكنّهم علموا أنّهم لو تمنّوا لماتوا من ساعتهم ولحقهم الوعيد، فما تمالك أحد منهم أن يتمنّى، وهي إحدى المعجزات»[58] * الّتي بهتت اليهود، فأنّى لهم أن يتمنّوا ما ليسوا ببالغيه أبدا ؟

لكن امتناعهم عن تمنّي الموت لا يعني دوام حياتهم، فالموت ملاقيهم ومصيرهم إلى الله العليم بهم فيجازيهم بأفعالهم وأقوالهم

يقول تعالى: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى• (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى**﴾[59]

فتحت هذه الآيات بنتيجة تليها مجموعة من الحجج، فتسبيح اسم الله هو «تنزيهه عمّا لا يصحّ فيه المعاني الّتي هي إلحاد في أسمائه»[60] فبيّن الله أنّ التّسبيح لأسباب، لذلك بدأ بهذه الآية وهي «النّتيجة الّتي يهدف الله عزّ وجلّ بصفته المتكلّم إلى إقناع المخاطَب ودفعه إلى العمل بها، ويقضي الاستدلال أو المنطق أيّا كان هذا المنطق (صوريّا أو طبيعيّا) أن يرفق ذكر النّتيجة بذكر الأدلّة والحجج الّتي تخدمها وتؤدّي إليها ولذلك أورد الله تعالى مجموعة من الحجج مباشرة بعد الآية الأولى، وهي الآيات الموالية:

- الّذي خلق فسوّى

- و الّذي قدّر فهدى

- و الّذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى

و هناك حجج أخرى مبثوثة في السّورة يمكن استخراجها، وكلّها تخدم النّتيجة السّابقة، ثمّ إنّها تندرج في البرنامج الحجاجي العامّ»[61]

فالنّتيجة هي: **سبّح اسم ربّك الأعلى**

فإذا قلنا: لماذا أو: لِمَ نسبِّحه ؟ جاءت الحجج متتالية:

لأنّه هو الّذي – خلق فسوّى (حجة1)

– قدّر فهدى (حجة 2)

– أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى (حجة 3)

فتقديم النّتيجة دليل على أهمّيتها وإتباعها بالحجّة توكيد لها ثمّ «إذا عدنا إلى العلاقة الحجاجيّة المتضمَّنة في المقطع الأوّل من السّورة (الآيات الّتي تمّ عرضها)، فإنّه يمكننا الحديث أيضا عن الاستعمالات الحجاجية لـ " الّذي " إلى جانب وظائفه الأخرى التّركيبية والدّلالية، فنقول في هذا الإطار، "الّذي" هو: رابط حجاجي مُدْرِجٌ للحجج، فهو الّذي ربط، ودون أن تكون هناك أي أداة من أدوات العطف، بين النّتيجة المقصودة والحجج المؤدّية إليها»[62]

لكنّنا نلاحظ وجود الواو بين الحجتين الثّانية والثّالثة لكنّها غير موجودة بين النّتيجة والحجّة الّتي تليها، حيث اكتفى تعالى بذكر "الّذي" توكيدا لتسبيح الذّات الإلهيّة، وهو توكيد أيضا للصّلة بين الأعلى وغيرها من الحجج، فإنّ الأعلى هو ذاته صاحب الأسباب الموالية، حتّى لا ينكر منكر هذا ويسبّح اسم ربّه .

2– **الحجاج المنطقي**: وهو حجّة الكلام في ذاته لا في أدواته، حيث يخاطب العقل، ونتناول في هذا السّياق أمثلة من القرآن الكريم

المثال 1

يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[63]

بدأت الآية بـ "ألم تر" وهو « تعجيب من محاجّة نمرود في الله وكفره به»[64] فقد آتاه الله الملك، لكنّه لم يشكر واستعلى، فأتاح له الله فرصة عرض حججه إذ من «خصائص التّعبير القرآني، أخذه بأسلوب الحوار، وبالجدل البنّاء، الّذي يهدف إلى الحصول على الحقيقة، كذلك فهو يتبنّى إستراتيجية جدلية في إفساح المجال للرّأي الآخر وإعطائه الفرصة الكافية للتّعبير الدّقيق والأمين عن هذا الرّأي الآخر قبل أن يبدأ في الرّدّ عليه، فإذا كان هذا الرّأي الآخر ينطوي على شبهة حقيقية فإنّه يعترف بذلك بوضوح قبل الرّدّ عليه ردّا موضوعيّا رصينا فيبيّن وجه الضّعف فيه ويقيم البرهان الجادّ على بطلانه»[65]، والحوار من أسس الحجاج وهو من أنجع الوسائل في الإقناع، إذ يعرض كلّ طرف حججه وحين تنتهي يكون أحدهما قد اقتنع، وأزيلت له كل الإدّعاءات الواهية.

هذا ما حدث مع سيّدنا إبراهيم حين جاذبه النّمرود الحجّة، فقد علّمنا الله عزّ وجلّ «السّؤال والجواب والمجادلة في الدّين، لأنّه لا يظهر الفرق بين الحقّ والباطل إلّا بظهور حجّة الحقّ ودحض حجّة الباطل»[66] والاستماع للآخرين، وترْكُ فرصة لهم هو مساعدةٌ لأنفسنا على فهم الآخرين، وكذا إقناعهم بالّتي هي أحسن .

وقيل: كانت هذه المحاجّة «حين كسر (سيّدنا إبراهيم عليه السّلام) الأصنام وسجنه نمرود، ثمّ أخرجه من السّجن ليحرقه فقال له: من ربّك الّذي تدعو إليه ؟ فقال ربّي الّذي يحي ويميت»[67] هنا أراد النّمرود أن يضاهي أفعال اللهّ فقال: أنا أحيي وأميت " يريد أعفو عن القتل وأقتل »[68] أي جاء بشخصين حُكِمَ عليهما بالقتل، فقتل واحدا وعفا عن الآخر، وشتّان بين القتل والموت، والحياة والعفو، بين ما يفعله ربّ العباد وبين ما يدعيه الطّغاة، فلمّا سمع سيّدنا إبراهيم عليه السّلام «جوابه الأحمق، لم يحاجَّه فيه، ولكن انتقل إلى مالا يقدر فيه على نحو ذلك الجواب، ليبهته أوّل شيء، وهذا

دليل على جواز الانتقال للمجادِل من حجّة إلى حجّة»[69] أقوى، فلم يردّ عليه في حجّته الأولى، لأنّها في منطقها بعيدة عن الإحياء والإماتة المنسوب فعلُهما لله، فالإحياء هو الخلق من عدم، والإماتة هي خروج الرّوح دون تأذّي الجسد، فأين هذا ممّا فعله النّمرود ؟

بعد هذا قال له سيّدنا إبراهيم **"فَإِنَّ اللهَّ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فات بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ "** فهذه حجّة أقوى من الأولى، يعني إن كنتَ تدّعي القدرة على الإحياء والإماتة، فإن الله لا يقدر على هذا وحسب، بل يتجاوزه، فما عساك فاعل إن كان يأتي بالشّمس بالمشرق، فهل تستطيع أنت أن تعكس هذه الآية وتقدر على تعطيل قدرة الله وتأتي بالشّمس من المغرب ؟ فبهت الّذي كفر أي صمت وذهل وهذا دليل:

1 – على قوّة الحجّة

2 – عدم قدرة النّمرود على فعل ما طلبه إليه سيّدنا إبراهيم، لأنّه مستحيل ولأنّ النّمرود كان من الظّالمين، فلم يهده الله سبيلا وبقي عاجزا، في مقابله نجد سيّدنا إبراهيم عليه السّلام الّذي بحث عن إلهه فوجده ولم يكن من الظّالمين، فهداه الله سواء السّبيل.

نتعرّف من خلال هذا على قوّة الحجّة المنطقيّة، لأنّها تردع المتمارين في جدالهم، والطّاغين بعقولهم والمستهزئين بعقول غيرهم، والمستخفّين بمن هُمٌ دونهم في الرّزق الّذي هو من عند الله سبحانه. و نبرز القوّة الحجاجيّة والتّناوب أثناء الحوار من خلال الجدول

حجّة إبراهيم عليه السّلام	حجّة نمرود
1) ربّي الّذي يحي ويميت 2) الله يأتي بالشّمس من المشرق فأت بها من المغرب	1)أنا أحيي وأميت 2)دون ردّ (بهت الّذي كفر)

المثال 02:

يقول تعالى ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾[70]

أوّل ما وُوجِهَتْ به الرّسالات السّماويّة هي التّشكيك في ذات الله، إمّا بعدم وجوده (سبحانه) أو بأنّه ليس واحدا (تعالى شأنه)، وكذلك كانت المشكلة الأولى الّتي واجهها الإسلام هي «مشكلة التّوحيد مع جماعة تنكر هذا التّوحيد أشدّ الإنكار، وتعدّه إحدى الأعاجيب الكبار، فلنظر كيف حاجّهم في هذه القضية المعقّدة .

لقد تناولها ببساطة ويسر، وخاطب البداهة والبصيرة بلا تعقيد كلامي ولا جدل ذهني»[71] فخاطب العقول جميعا بلغة بسيطة، وفكر موجّه إلى التّدبر في هذا الكون ومعرفة أسراره الّتي يدركها العقل الصّافي المتأمّل فيما حوله، ونحلّل الآية على النّحو التّالي:

وجود شريك ــ يعني التّنازع على الملك ــ يؤدّي إلى الحروب ــ وبالتّالي خراب السّماوات والأرض وفسادها.

-لو كان فيهما آلهة غير الله (سبب) ــ لفسدتا (نتيجة مصرَّح بها).

-ليس فيهما آلهة غير الله (سبب مضمر) ــ صلحتا (نتيجة مضمرة).

إذن فعدم وجود آلهة غير الله هو سبب النّظام الكوني الّذي نراه وندركه لتكون النّتيجة المركزية هي: لا إله إلّا الله (دعوة العقل إلى التّوحيد): «هكذا في بساطة البداهة، الّتي لا ترى في السّماوات والأرض فسادا، إنّما ترى نظاما محكما، يوحي بأنّ المدبِّر واحد، قادر عالم حكيم»[72] في تصرّفاته ودلائل إعجازه وفي الإتيان بالحجج، وهذا: «أبلغ ما يكون من الحجاج، وهو الأصل الّذي عليه الاعتماد في صحّة التّوحيد، لأنّه لو كان إله آخر لبطل الخلق بالتّمانع بوجودهما دون أفعالهما»[73] ، وهذا ما نراه حتّى في واقعنا، فوجود مسؤول واحد يجعل الأمر يسير بنظام، أمّا كثرة المسؤولين فإنّها تحدث الفوضى ولله المثل الأعلى، وسبحانه عمّا يصفون وتعالى علوا كبيرا.

المثال 03:

يقول تعالى: ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾[74]

احتار عقل الإنسان، فما يقلق وجودَ الإنسان هو وجودُ الإنسان، فمازال محتارا في وجوده باحثا عن السّرّ، ولا يصدق أنّ الّذي دفن وأصبح رفاتا يمكن أن يعود كما كان، فالله يجيبه: بأن هذا ليس معجزا وعجيبا، فمن المفترض أنّ وجود الإنسان أوّل مرّة أغرب، فالخلق من عدم هو المعجزة، فكيف يتساءل عمّا هو أقلّ وينسى ما هو أعظم؟ فالّذي خلق الإنسان أوّل مرّة (وهو أمر مثبت) قادر على أن يحييه بعد مماته.

نبسط القول قليلا: حبّات القمح الّتي كانت سنابل، ثمّ بعد حصادها صارت حبّا ميتا، فإذا أعدناها إلى التّراب – أي بذرناها- وسقيناها عادت إلى الحياة وأنبتت، فكذلك هو حال الإنسان الميت إذا توافرت له شروط، بث الله فيه الرّوح من جديد فعاد إلى الحياة، فسبحان محيي العظام وهي رميم، فهل للعقل أن يتدبّر؟

3- الحجاج المادي الملموس:

ونقصد به الحجّة الّتي تراها العين وتلمسها اليد، وهي معجزة في حينها، وأورد الله أخبارها في القرآن الكريم.

المثال 01: يقول الله تعالى: ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآَرِبُ* أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى* (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى**﴾[75]

فاتحة الآيات سؤال، وفيما يبدو لا تُراد منه إجابة مباشرة، لأن الله أعلم من سيّدنا موسى بما في يمينه، لكن السّؤال مفتاح لباب الحوار، والإجابة قد تقتصر على (**هِيَ عَصَايَ**) لكن شوق الحديث إلى الخالق عزّ وجلّ جعله يطيل ويستأنس كأنّه أراد أن يقول أدقّ التّفاصيل عنها ليبقى أطول وقت في حديثه مع الله، والله: «إنّما سأله ليريه عِظَمَ ما يخترعه –جلّ علاه- في الخشبة اليابسة من قَلْبِهَا حيَّةً نضناضةً [تحرّك لسانها في فمها]، وليقرّر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبّه على قدرته الباهرة»[76] وما يفعله بهاته الّتي هي الآن عصا.

نلمس من حديث سيّدنا موسى أنّها عصا عادية تفعل ما تفعله العصا المألوفة، وليس لها ما يميّزها، فذَكَرَ: «على التّفصيل والإجمال المنافع المتعلّقة بالعصا، كأنّه أحسّ بما يعقب السّؤال من أمر عظيم يحدثه الله تعالى فقال: ما هي إلّا عصا لا تنفع إلّا منافع بنات جنسها، وكما تنفع العيدان، ليكون جوابه مطابقا للغرض الّذي فهمه من فحوى كلام ربّه، ويجوز أن يريد – عزّ وجلّ- أن يعدّد المرافق الكثيرة الّتي علّقها بالعصا ويستكثرها ويستعظمها، ثمّ يريه عقب ذلك الآية العظيمة، كأنّه يقول له: أين أنت عن هذه المنفعة العظمى والمأربة الكبرى، المنسية عندها كلّ منفعة ومأربة كنت تعتدّ بها وتحتفل بشأنها، وقالوا: إنّما سأله ليبسط منه ويقلّل هيبته، وقالوا: إنّما أجمل موسى ليسأله عن تلك المآرب فيزيد في إكرامه، وقالوا: انقطع لسانه بالهيبة فأجمل»[77] ولم يفصّل: أي حين قال: ولي فيها مآرب أخراة، من هنا تبدأ الحجّة.

ينادي الله سيّدنا موسى باسمه مع تكرار النّداء، وهكذا دليل على أنّ الله يريد منه أن يستأنس ولا يخاف، وذكر الاسم محبّب إلى الأشخاص، وفيه علاقة حميمة تدلّ على القرب، وبعد الاستئناس يأمره: "ألقها" والتّنفيذ يأتي مباشرة دون جدل أو سؤال (فألقاها فإذا هي حيّة تسعى)، والمفاجأة تحدث عند الإلقاء، وليس عندما تكون في يد سيّدنا موسى عليه السّلام لإبعاد الرّهبة والخوف عنه، فلو صارت حيّة وهي في يده لأغمي عليه، والله يريد أن يريه الحجّة، ولابدّ أن تراها عيناه، وقد يكون هذا استعدادا لما سيراه من عمل السّحرة، حتّى لا يسترهبوا عينيه، كما سبق واسترهبوا أعين النّاس.

ما قام به اللهُ أكبرُ وأعظمُ، فإن رأى سيّدنا موسى هذا، علم أنّه حجّة من الله فيطمئنّ قلبه ولا يخشى، ومن جهة يستبين عمل السّحرة الّذي هو أدنى (حبالهم وعصيّهم)، ونرى قيمة السّؤال الّذي قلنا لا يراد به البحث عن إجابة، وإنّما هنا توكيد على أنّها كانت عصا وصارت حيّة، أي كانت على سيرة (العصا الّتي يعرفها سيّدنا موسى عليه السّلام) وصارت على سيرة أخرى (حيّة تسعى، حجّة أودعها الله فيها)، كما أنّ السّعي دليل على الحركة فهي غير رابطة.

قال تعالى: (**خذها**)، إذ من المنطقي خوف الإنسان من الحيّة، فسيّدنا موسى على ما رأى منها، طبيعي أن يخاف هذه العصا الّتي صارت حيّة، فمن المتوقّع أن تصير شيئا آخر يثير الرّهبة، فهي معجزة الله، لذا أردف تعالى قوله بـ: ﴿ **وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى** ﴾، حتّى يزول خوفه إذا رجعت عصا، لأنّ الّذي صيّرها حيّة قادر على إعادتها كما كانت وليطمئن سيّدنا موسى إلى:

- أوّلا: عودة العصا إلى سيرتها الأولى.

- ثانيا: معه حجّة من الله إلى فرعون والسّحرة.

وبالتّالي هذه حجّة ملموسة مجسّدة على الواقع يجابه بها سيّدُنا موسى عليه السّلام فرعونَ، فيزول الخوف الأوّل من العصا، والثّاني من فرعون والسّحرة.

المثال 02:

يقول تعالى: ﴿ **قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى** ﴾[78]

قلنا سابقا إنّ الله يرسل الحجج مراعيا جميع الجوانب، وكان «السّحر منتشرا بين المصريين عامّتهم وخاصّتهم استرهبهم فرعون وجنوده به، فجاءت معجزات موسى عليه السّلام من جنس المشهور بين قومه، فمن معجزاته الرئيسية:

العصا: ﴿ **فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ** ﴾ الشّعراء: 32.

واليد: ﴿ **وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ** ﴾ النّمل: 12.

فظاهر هاتين المعجزتين لا يختلف عما كان متداولا بين سحرة فرعون، ولكنّ أهل الدّراية بالسّحر كانوا يميّزون بين السّحر، وبين ما هو خارج قوى السّحر، بل من صنع الله»[79].

طلب السّحرة من سيّدنا موسى أن يختار بين أن يبدأ أو أن يبدؤوا، فكان كريما وقابل طلبهم بأدب، فكانت لهم المبادرة، وهذا يندرج في أدبيّات الحوار وقوّتها الحجاجيّة.

لمّا ألقوا حبالهم وعصيّهم خيّل إلى سيّدنا موسى أنّها تسعى فخاف لكنّ الله معه، فقال: لا تخف، كأنّه يُذَكِّرُه بأنّك يا موسى قد رأيت من عصاك ما هو أعظم، وهذا سحرٌ فأنت الأعلى، توكيدا بـ (إنّ، الكاف، الضّمير [أنت]، أل التّعريف) ليكون هذا يقينا من الله إلى سيّدنا موسى ليطمئنّ ويلقي ما في يمينه، أي الّتي كانت عصا وستصير حيّة تسعى تلقّف ما صنعوا لأنّه سحر وذلك حقّ من الله.

ليُري الله آياته لعباده ويعجزهم فيما ظنّوا أن لا أحد قادر عليه، فأتاهم الله بما هو من جنسه لكنّه أعظم، لأنّه من عند الله وهو حقّ، وذاك باطل.*

4- الحجاج المادّي – المنطقي:

وهو ما جمع بين الحجج الملموسة والحجج الّتي تخاطب العقل، وهذا في سياق واحد.

يقول تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ** ﴾(80)

بداية الآيات أنّ الله دلّ سيّدنا إبراهيم على سبيل الرّشد، لأنّه كان يبحث عن خالق هذا الكون في: الكوكب، القمر، الشّمس ... إلى أن اهتدى، فأراد أن يهدي قومه بطريقة حضاريّة قائمة على الحوار أساسها السّؤال والجواب، غير أنّ ما توصّل إليه أنّ قومه مصرّون على عبادة التّماثيل الّتي توارثوها عن آبائهم دون أن يفهموا وصارت من مقدّساتهم .

جاءهم سيّدنا إبراهيم بحجّة أولى هي أنّ الله هو ربّهم وهو خالق هذه التّماثيل، كما أنّه توعّدهم بتحطيمها وإقامة الحجّة عليهم، فحين دخل مع والده بيت الأصنام نظر إليها سيّدنا إبراهيم عليه السّلام: «وكانت سبعين صنما مصطفة، وثَمَّ صنم عظيم مستقبِل الباب، وكان من ذهبٍ، في عينه جوهرتان تضيئان باللّيل، فكسرها كلّها بفأس كانت في يده، حتّى إذا لم يبق إلّا الكبير علّق الفأس في عنقه ... ومعنى هذا: لعلّهم يرجعون إليه كما يرجع العالم في حلّ المشكلات، فيقولون له: ما لهؤلاء مكسورة ومالك صحيحا والفأس على عاتقك؟»[81]

أقام عليهم حجّة واقعيّة وهي تحطيم الأصنام ونفهم منه:

-لو كانت تنفع لنفعت نفسَها وحَمَتْها.

-لو كانت تضرّ لضرّت سيّدَنا إبراهيم الّذي جعلها جذاذا.

-لو كانت تنطق لأخبرت عن الفاعل.

لكنّها لم تفعل أيّا من هذا، وحين استدعوا سيّدنا إبراهيم سألوه: أأنت فعلت هذا بآلهتنا؟ فيجيبهم بحجّة منطقية تزعزع عقولهم كلّها علّها تعود إلى الصّواب (**بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون**).

-إن كنتم أصحاب عقول فلا تسألوني واسألوا الأصنام.

-إن كانت الأصنام تجيب دعاءكم عندما تدعونها، فستجيب سؤالكم وتخبركم عن الفاعل.

-إن كان بقي واحد وهو حامل الفأس فلابد أنّه الفاعل (استخفافا بعقولهم).

-إن كانوا لا يضرّون ولا ينفعون ولا ينطقون، فلِمَ إيّاهم تعبدون؟.

تؤثّر فيهم هذه الحجّة العقليّة ويعودون لرشدهم (**فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنّكم أنتم الظّالمون**) غير أنّ هذا لا يدوم،

فيردّون (**لقد علمت ما هؤلاء ينطقون**) يعني:

-أنّ الأصنام لا تقدر على هذا الفعل (التّحطيم).

-أنّك تسخر منا، فأنت تعلم أنّهم لا ينطقون، وقد طلبت ما يعجزون عنه، حينها يردّ سيّدنا إبراهيم وقد سئم جدالهم: ﴿ **أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِّ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِّ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ ولم يقل أفلا تؤمنون، لأنّه عرض عليهم حجّة عقليّة يصدّقها العقل العاقل، لكنّهم أبوا، ولم يتّبعوا عقولهم بل ما وجدوا آباءهم عليه، فأرادوا إحراقه فكانت النّار بردا وسلاما وحجّة ملموسة من الله على الكافرين، لكن لا فائدة ترجى منهم فجعلهم الأخسرين ونجّى سيّدَنا إبراهيم الّذي بلّغ رسالات ربّه بكلّ الطّرائق.

5- الحجاج العلمي:

هو إقامة الحجّة العلميّة التّجريبيّة، خصوصا مع قولنا إنّ القرآن صالح لكلّ زمان ومكان، وعصرنا انتشرت فيه الاكتشافات العلميّة والوسائل التّكنولوجيّة، والرّحلات الفضائيّة، واهتمّ بهذا المجال أهل (**الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**)، حيث إنّه الكتاب المقدّس الوحيد الّذي اهتمّ فيه أهله بهذا الجانب، وهم يدقّقون في الكبيرة والصّغيرة، لأنّ أيَّ خطإ يعتبر حجّة عليهم، أي إبطالُ نظرية هو إبطالٌ لما جاء في القرآن وتعطيل قدسية الكتاب، ولهذا وجب التّحرّز في هذا المجال.

المثال 01:

يقول تعالى: ﴿ **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾[82]

وعد الله بأن يُعيد الخلق كما بدأ، ووعده الحقّ، وممّا أثبته العلم أنّ الكون سيأتي عليه زمن يعود كما كان، أي إلى نقطة البداية، وتنقص الفترة الزّمنية للأيّام والسّنوات وتدور الأرض بسرعة

رهيبة جدّا إلى أن ينعكس اتّجاهها فتشرق الشّمس من المغرب، ويبدأ الكون بالانضمام إلى بعضه والانجذاب نحو نقطة مركزية هي الّتي انطلق منها في البدء.

المثال 02:

يقول تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ** ﴾(83)

الخطاب موجّه إلى الكفّار ليأخذوا العبرة، وفي وقتنا ومع احترامنا للمؤمنين، إلّا أنّ الكفّار هم من يبحثون ويكتشفون، ولعلّ هذا هو سبب توجيه الخطاب لهم وإعجازهم بحجّة يبحثون عن سرّها منذ بداية الخلق، ومعنى الآية أنّ السّماء والأرض كانت شيئا رتقا، أي إنّ «السّماء كانت لاصقة بالأرض لا فضاء بينهما، أو كانت السّماوات متلاصقات، وكذلك الأرضون لا فرج بينهما ففتقهما الله وفرج بينهما، وقيل: فتقناهما بالمطر والنّبات بعد ما كانت مصمتة»(84).

هذا الرّتق ما يسمّيه العلماء بالانفجار الكوني، أو الانفجار الأعظم، وهو بداية الكون، غير أنّ الانفجار يُحدث أضرارا على خلاف الرّتق الّذي يكون فيه الانشطار والانتشار من غير أضرار، لذلك قال تعالى: ﴿ **فَفَتَقْنَاهُمَا** ﴾ ولم يقل ففجرناهما، وهي طريقة في انفصالهما عن بعضهما تشبه حال الثّوب المخيط الّذي نفتح مكان خياطته بيدينا فنرى انسيابيته في الفتح وصوته المنخفض على عكس الانفجار المدوّي.

أمّا ما تعلق بالماء، فهو غير خافٍ على أحد، فالماء هو الحياة حتّى إنّ ثلاثة أرباع [75٪] جسم الإنسان عبارة عن ماء مخزّن في الخلايا وثلاثة أرباع الكرة الأرضية هي ماء.

المثال 03:

يقول تعالى: ﴿ **أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾(85)

أثبت العلم بواسطة الأقمار الصّناعية الموجّهة لدراسة البحار والمحيطات أنّ بين البحار خطّا أبيضا رفيعا لا يُرى إلّا من أعلى وهو يمنع امتزاج مياه البحار المتجاورة ويحافظ على خصوصية كل

بحر من ملوحة أو عذوبة، ونجد هذا أيضا في قوله تعالى: ﴿ **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ** (19) **بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ** ﴾(86)

المثال 04:

يقول تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا** ﴾(87)

ممّا أقرره علماء البحار في هذا المجال «أنّ الأنهار الضّخمة تشكّل عند مصبّاتها أشبه ما يكون ببحيرات خاصّة، لها خواصّها من حيث المذاق فليست هي بالمياه العذبة كمياه النّهر، وليس بالمياه المالحة الأجاج كما هي الحال في مياه البحر، وهذه المنطقة تعيش فيها الكائنات الحيّة الّتي لا تستطيع الخروج إلى مياه البحر لعدم ملائمة البيئة لها فتهلك، ولا تستطيع الخروج إلى مياه النّهر لعدم إمكان العيش فيها أيضا، فهذه المنطقة حجر محجور، يحجر كائناته الخاصّة وطبيعة مياهه عن الاختلاط بغيره، ومحجور عن المياه الأخرى»(88) رغم مرورها بها، كما أكّد العلم وجود أنهار ضخمة وعذبة وسط المحيطات.

المثال 05:

يقول تعالى: ﴿ **وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ** (14) **لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ** ﴾(89)

بيّنت الدّراسات العلميّة الحديثة أنّ خروج الإنسان من الأرض إلى الفضاء يحجب عنه الرّؤية في الفضاء بسبب الظّلام المنتشر، لأنّ الضّوء هو الّذي ينعكس على شبكية العين فيمنحها الرّؤية، وعدم وجود الضّوء هو امتناع الرّؤية وهذا ما قاله أحد روّاد الفضاء الأمريكيين التّابع لوكالة الفضاء الأمريكية النازا، إنّهم حين ابتعدوا عن الأرض ظنّوا أنّهم أصيبوا بالعمى وما عادوا مبصرين إلّا حين اقتربوا من الأرض.

المثال 06:

يقول تعالى: ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (34) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (35) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (36) فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ** ﴾[90].

يخاطب الله الثّقلين وأنّهما قادران على تجاوز نطاق السّماوات والأرض، وهذا فقط بسلطان أي بالعلم، لكنّ نفاذهما يعيقه شيء آخر هو شواظُ النّارِ والنّحاسُ، فنحن – المسلمين- نعلم أنّ الجان مخلوق من نار لكنّ الله يعذّبه بالنّار، وأيضا في الفضاء يرسل الله على الجان – الّذي يقترب من السّماء للسّماع – شواظا من نار [﴿فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا﴾ سورة الجنّ/ 9]، وأمّا الإنس وبعد غزوهم الفضاء وإرسالهم للأقمار الصّناعيّة، فإنّهم لاحظوا أنّ هناك ما يعيق حركتها خصوصا مع طول الزّمن، وهو وجود ترسبات من النّحاس عليها، هذا النّحاس منتشر في الفضاء يعلق بمثل هذه المركبات.

وفيما تعلّق بالسّماء فإنّ شاهد عيان في رحلة فضائية ذُهِلَ حين رأى أنّ السّماء تتفتح وردةً حمراء، ووصف هذا المشهد عند عودته إلى الأرض، فسبحان من يُريهم آياته في أنفسهم وفي الآفاق.

المثال 07:

يقول تعالى: ﴿ **فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾[91].

من يضيق صدره بالإسلام حاله شبيهة بمن يصّعّد في السّماء، حيث يقول العلم الحديث في هذا الصّدد «إن الله سبحانه وتعالى جعل الضّغط في داخل الجسم متناسبا تماما مع الضّغط الجوّي المحيط بالجسم، وقدر قياس هذا الضّغط بما يساوي وزن ستة وسبعين سنتيمترا من الزّئبق»[92]، وأنّ الإنسان كلّما ابتعد عن الأرض قَلَّتْ نسبة الأوكسجين، وسبّبت ضيقا في التّنفّس، لأنّ نسبة الأوكسجين على الأرض كافية، وقليلة أو معدومة في الفضاء حسب البعد عن الأرض.

الإنسان على الأرض يسير بحرّية دون شعور بالضّغط لكن وبعد «اكتشاف الوسائل الحديثة للارتفاع في أجواء السّماء فقد لاحظوا مدى التّأثير – عند الصّعود- بهذا الضّغط وما يرافقه من انقباض وضيق في الصدر وآلام مبرحة في الرّأس والأذنين وجميع المناطق الحسّاسة في الجسم وكلّما ارتفع في الجوّ تخلخل الضّغط الجوّي وزاد الضّغط الدّاخلي واشتدّ هذا الضّيق والشّعور بالاختناق، وإذا ما استمرّ الإنسان في الصّعود يأتي الوقت الّذي يكون فيه هلاكه المحتم، لذا يضطرّ روّاد الفضاء والطّيّارون الّذين يحلّقون عاليا في الأجواء إلى استخدام الألبسة المجهزة الخاصّة بهذه الحالات»[93] .
ما يحدث في الفضاء هو الآتي:

- قلّة الأوكسجين أو انعدامها يعني ضيق التّنفّس أو الاختناق.
- انعدام الجاذبية أي فقدان الوزن.
- انخفاض درجة الحرارة وبالتّالي البرودة.

كلّ هذه الأسباب تؤدّي إلى تقلّص عضلات الجسم وانقباضها ممّا يعني الآلام القاتلة وهشاشة العظام والصّداع، وتأثيرات أخراة على الأنسجة وكلّ هذه الظّواهر «يؤدّي إلى تغيّر في وظائف أعضاء الإنسان الدّاخلية، فالغازات في المعدة والأمعاء تتمدّد وتسبّب تقلّصات عنيفة، وقد يؤدّي تمدّد هذه الغازات إلى انتفاخ يدفع الحجاب الحاجز إلى أعلى، فيضغط على القلب والرّئتين، ممّا يسبّب الإغماء والاختناق في الحالات الشّديدة، ويختلّ نظام الدّورة الدّموية فقد تتفجر بعض العروق والأغشية في الجسم كغشاء الطّبل في الأذنين والإصابة برعاف شديد»[94] وغير هذا كثير ليبيّن الله حال من يضيق صدره بالإسلام.

المثال 08:

يقول تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** ﴾[95].

كثيرة هي الحجج الّتي قدمها الله لعباده لعلّهم يعقلون، فذكر تأثير «الرّياح في إنشاء السّحب وتلقيحها وتشكيلها، ثمّ نزول المطر أو البرد منها، هذه الحقائق من أعجب الأمور وأدقّها الّتي

توصّل إليها العلم الحديث، فلو لم يكن في القرآن إلّا هذه الحقائق لكانت كافية في تعريفنا بأنّ منزل القرآن هو خالق السّماوات الأرض ومُصرِّف الرّياح ومنزل الماء من السّماء يحيي بها الأرض بعد موتها.

ولنسمع ما يقوله العلم الحديث في هذا الشّأن:

الأصل في تكوين السّحب على اختلاف أنواعها وأشكالها، إنّما هي الرّياح، فالسّحب الطّبقيّة وهي الّتي تنمو في اتجاه أفقي يكون الهواء الّذي يحملها صاعدا إلى أعلى ببطء، أمّا السّحب الرّكاميّة الرّأسية تكون الرّياح الّتي تحملها صاعدة إلى أعلى بسرعة»[96].

القرآن بيّن كلّ الحقائق الكونيّة منذ زمن، قبل أن يتوصّل العلم إليها علّ النّاس يعرفون ربّهم.

المثال 9:

يقول تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَّ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾[97]

الإعجاز العلمي يكمن في الحجّة الّتي قال فيها تعالى: ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَّ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾، ما أثبته العلم أنّ نضوج الجلد من شدّة الاحتراق بالنّار لا يحدث ألمًا، أي وصول النّار إلى الطّبقة الثّالثة من الجلد، لكن عندما تبدأ الأنسجة بالنّمو على مستوى الطّبقتين الثّانية والأولى، فإنّ الإنسان يشعر بالألم وبحكّة شديدة.كما أنّ المصابين بالحروق على مستوى الطّبقة الأولى يعانون آلامًا أشدّ من الّتي يعانيها المصابون بالحروق على مستوى الطّبقة الثّالثة رغم خطورة الثّانية عن الأولى.

لذا فإن العذاب يوم القيامة يكون بتغيير الجلد النّاضج بآخر لم ينضج ليذوق صاحبه الألم.

اللّهم قنا عذاب جهنّم إنّ عذابها كان غراما.

6- حجاج الأمم الغابرة:

يذكر الله قصص الأوّلين لتكون حجّة على الآخِرين .

مثال 01:

يقول تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾[98]

يخبرنا الله بما حدث لهذه الأقوام، وأنّ ما أصابها يمكن أن يصيب غيرها، إذا كانوا مثلها ضالّين، وهو تحذير للعباد حتّى لا يقولوا لِمَ لَمْ يخبرنا ربّنا بها؟ وقصّة أو جّنة إرم هي واحدة منها، بناها شدّاد بن عاد حين سمع «بذكر الجنّة، فقال: أبني مثلها، فبني إرم في بعض صحاري عدن في ثلاثمائة سنة، وكان عمره تسعمائة سنة، وهي مدينة عظيمة قصورها من الذّهب والفضّة، وأساطينها من الزّبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنّهار المطردة، ولما تمّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلمّا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السّماء فهلكوا»[99]، لأنّها مبنية على الضّرائب ونهب ممتلكات الشّعب، كما أنّ هذا الشّعب طغى فعاقبه الله بإغراق هذه المدينة في البحر، ويقال إنّها تظهر مرّة كلّ أربعين سنة، لا تفتح أبوابها إلّا للسّعداء.

كلّ هذا النّعيم طمس الله عليه في رمشة عين، فما بال الّذين يبنون القصور من مال الحرام لا يتّعظون؟ وينْسَوْنَ أنّ الله موجود وما عنده خير وأبقى.

وما حال ثمود بالأفضل إذ «قطعوا صخر الجبال واتّخذوا فيها بيوتا»[100] ولا حال فرعون بالأحسن، فقد آتاه الله الملك لكنّه طغى وتجبّر، فأهلكه الله، وهذا حال الأمم الغابرة الّتي كفرت بأنعم ربّها، فأذاقها الله العذاب لتكون عبرة لمن يعتبر وحجّة على من يكفر.

المثال 02: يقول تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ**﴾[101]

حدث هذا عام ميلاد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، أي قبل بعثته، فإنّ أبرهة الأشرم بنى كعبة باليمن ليحجّ إليها النّاس ويلهيهم عن الموجودة بمكّة، لكنّهم لم يصغوا إليه فقرّر هدم الكعبة

الموجودة بمكّة على ظهر فيل ضخم، لكنّ الله أراد أن ينصر قبلة إبراهيم عليه السّلام، فأرسل من السّماء طيرا، ومع كلّ طائر: «حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أكبر من العدسة، وأصغر من الحمصة ... وعلى كلّ حجر اسم من يقع عليه»[102]، فما هذا من عمل البشر، ولا استطاع أهل مكّة حمايتها لولا أنّ الله رعاها.

7- حجاج الأمثال:

والمقصود به أن يضرب الله الأمثال لتكون حجّة على النّاس من غير تحديد لطبيعة المثل.

المثال 01: يقول تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ** ﴾[103]

الرّحمن يضرب مثل كلمتين*:

- إحداهما طيّبة.
- و الأخرى خبيثة.

وليقرّب المعنى جسّمه ونعني به: «لونا جديدا هو تجسيم المعنويات، لا على وجه التّثبيت والتّمثيل، بل على وجه التّصيير والتّحويل»[104] لأنّ الكلمة صارت شجرة على هذا النّحو:

كلمة طيّبة ــ شجرة طيّبة ــ أصلها ثابت وفرعها في السّماء ــ تؤتي أُكلها كلّ حين

كلمة خبيثة ــ شجرة خبيثة ــ اجتثّت من فوق الأرض ما لها من قرار ــ لا أُكل لها (نتيجة).

الكلمة الطيّبة لها ثمارها وأثرها على النّفس والمجتمع، والكلمة الخبيثة كشجرة لكنّها اجتثّت من فوق الأرض، وإذا قلنا: إن كانت شجرة فلِمَ قال: من فوق الأرض ولم يقل من الأرض؟ جاء ردّه سريعا: ما لها من قرار، أي لا جذور لها، لذا تُقْتَلَعُ من على السّطح.

الكلمة الطّيّبة تتغلغل في النّفس وتدوم وتؤتي أكلها، على عكس الكلمة الخبيثة الّتي لا تؤذي إلّا صاحبها فاجتثّت.

مثال 02:

يقول تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾[105].

حال العنكبوت: تقتل زوجها ويأكلها صغارها (**أَوْهَنَ الْبُيُوتِ**) أولئك أولياؤها ما أفادوها ولا أفادتهم، وهي حال من اتّخذ من دون الله وليّا، وهذا لتقريب المعنى وحجّة على الّذين اتّخذوا من دون الله أولياء.

المثال 03:

يقول تعالى: ﴿ **ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10) وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آَمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ** ﴾[106]

ضرب الله سبحانه وتعالى مثل المرأة وهي المخلوق الضّعيف إذا ما قورنت بالرّجل، إضافة إلى أن النّساء ناقصات عقلا ودينا، لكن مع ضعفهنّ فإنّ كيدهنّ عظيم، فامرأة «نوح قالت لقومه: إنّه مجنون، وامرأة لوط دلّت على ضيفانه»[107].

في مقابلهما نجد سيّدتا نساء الأرض آسيا زوج فرعون ومريم بنت عمران، فالأولى لقيت أشدّ العذاب من زوجها ففضّلت القرب من الله والثّانية مع ما اتّهمت به ولاقته من كلام النّاس، إلّا أنّها صدّقت بكلام ربّها، وهاتان حالان متعارضتان:

- الأولى: أزواج صالحون ونساء خائنات.
- الثّانية: نساء صالحات ← آسيا: زوج جبار
  ← مريم: قوم كافرون.

في الحال الأولى: ما أغنى أنبياء الله عن أزواجهم، لأنّه لا يحقّ للأنبياء أن يستغفروا للكفّار بعدما تبيّن كفرهم ولو كانوا أهلا لهم.

والحال الثّانية: أنّ صدق الإيمان يبلّغ صاحبه أعلى المراتب وأنّ الصّبر مفتاح الفرج، ولا يحقّ لأحد إن أراد أن يكون مؤمنا أن يبتدع الأعذار من أنّ الّذي يملكه هو أقوى منه. وخلاصة القول إنّه لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم.

المثال 04: يقول تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ** ﴾[108]

يأمر الرّحمان عباده أن يستمعوا لهذا المثل، لأنّ أهل الجاهليّة كانوا لا يستمعون للقرآن، فالله يريدهم ويريد النّاس جميعا أن يستمعوا للمثل الّذي يتّخذونه هزؤا ويسخرون كيف أن الله يأتي بهذه الأمثال، إلّا أنّه يبيّن حكمته من هذه الأمثال، ومن هذا الذّباب الأقلّ الأذلّ الّذي «لو اختطف منهم شيئا فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا، وقوله (**ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**) كالتّسوية بينهم [التّماثيل] وبين الذّباب في الضّعف»[109].

الّذين تدعون من دون الله يقصد التّماثيل والأصنام، فإن حطّ عليها الذّباب أو أخذ منها شيئا لا يمكنها استرداده، وكلّ هذه التّماثيل مجتمعة لن تقدر على خلق الذّباب هذا الضّعيف الّذي تحتقرونه وتقدسّون غيره، هذه الجمادات الّتي لا تقدر حتّى على حماية نفسها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما «أنّهم كانوا يطلونها بالزّعفران ورؤوسها بالعسل، ويغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذّباب من الكوى فيأكله»[110].

المثال 05:

يقول تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ** ﴾[111]

يبيّن الله أنّ أعمال الكفّار وهي: «صلة الأرحام، وعتق الرّقاب، وفداء الأسارى، وعقر الإبل للأضياف، وإغاثة الملفوفين، والإجازة، وغير ذلك من صنائعهم» (112) كالرّماد لأنّها أهلت لغير الله، وأيُّ رماد هذا ؟ إنّه الّذي اشتدّت به الرّيح، ويؤكّد (**في يوم عاصف**).

الرّماد أساسا مادّة خفيفة ناتجة عن الاحتراق، لا أهمّية لها فتبعثرها الرّياح، ويصعب بل ويستحيل الإمساك بها أو جمعها، هذا حال أعمال الكفّار، وهو الضّلال البعيد، لأنّ أعمالهم الّتي هي لغير الله زادتهم طغيانا وكفرا وبُعْدًا عن الله، إذ لا أجر ولا ثواب لهم منها يوم القيامة، لأنّها أحرقت وذهبت هباءً منثورا.

المثال 06:

يقول تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَّ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُّ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ**﴾(112)

فإنّ بعض الّذين يستمعون يسخرون ويضحكون، لذا سيقت هذه الآية: «لبيان ما استنكره الجهلة والسّفهاء وأهل العناد والمراء من الكفّار واستغربوه من أن تكون المحقَّرات من الأشياء مضروبا بها المثل، ليس بموضع للاستنكار والاستغراب، من قبل أنّ التّمثيل يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، وإدناء المتوهَّم من المشاهد فإن كان المتمثَّل له عظيما كان المتمثَّل به مثله، وإن كان حقيرا كان المتمثَّل به كذلك، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إذًا إلّا أمرا تستدعيه حال المتمثّل له وتستجرّه إلى نفسها»(113)

العبرة بمن يضرب المثل من أجله، فيكون المثل من جنس أفعاله، ولا علاقة للمشبّه به بالحقارة والعظم، لأنّها مخلوقات الله، لكن البعوضة لو تدبّر النّاسُ فيها وهي حشرة صغيرة لَاستغربوا من عجيب تكوينها وإبداع صنعها. فهي تبعث في جلد الإنسان مادّة مخدّرة بحيث لا يشعر بوخزها إلّا بعد إنهاء مَهمّتها، فتقطع الجلد بشكل مربّع وتمتصّ الدّم، فإن كان مناسبا أعادت الكرّة، هذا ما يبرر معاناة النّاس مع البعوض، مع أنّه حشرة لا تسمع.

مراجع البحث وإحالاته:

1ـ علي برغوث .الاتصال الإقناعي "مذكرة تعليمية لطلبة مستوى ثالث". جامعة الأقصى، غزة، 9 مايو2005، ص:21.

2ـ نفسه، ص: 3.

3ـ أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم ابن منظور. دار صادر، بيروت- لبنان، المجلد الرابع، ط01؛ ص: 38.

4ـ نفسه. المجلد الثاني، ص:

5ـ نفسه، المجلد الثالث، ص: 99.

6ـ جميل صليبا. المعجم الفلسفي. دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، ج01، 1982، ص: 445.

*-البينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

7ـ نفسه. ص: 446

8ـ مراد وهبة. المعجم الفلسفي. دار قباء الحديثة، القاهرة- مصر، ط 05؛ 2007، ص: 266.

9ـ علي بن محمد الشريف الجرجاني. كتاب التعريفات. مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة؛ 1985، ص: 76.

10ـ جميل صليبا. المعجم الفلسفي. ص: 206.

11ـ نفسه. ص: 206-207.

12ـ نفسه. ص: 391.

13ـ نفسه. ص: 393.

14ـ أبو بكر العزاوي. اللغة والحجاج. العمدة في الطبع، الدار البيضاء- المغرب، ط 01؛ 2006، ص: 15.

15ـ أبو بكر العزاوي. الخطاب والحجاج. مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط01؛ 2010، ص: 9.

16ـ أبو بكر العزاوي. اللغة والحجاج. ص: 17.

17ـ أبو بكر العزاوي. الخطاب والحجاج. ص: 11.

*الحجة في القرآن: ذكرت في مواضع عدة منها: البقرة "76، 139"، آل عمران"60، 61، 65، 66، 73"، الأنعام "80"، غافر "47"، الشورى"16".

18ـ قدور عمران. البعد التداولي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل "أطروحة دكتوراه(مخطوط)". جامعة الجزائر، السنة الجامعية: 2008-2009، ص: 34.

19ـ نفسه. ص: 34.

20ـ نفسه. ص: 7

21ـ مصطفى مسلم. مباحث في إعجاز القرآن. دار المسلم للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية- الرياض، ط02؛ 1416هـ- 1996م، ص: 26- 27.

22ـ نفسه. ص: 27.

23ـ قدور عمران. البعد التداولي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل "أطروحة دكتوراه(مخطوط)". ص: 6.

24ـ مصطفى مسلم. مباحث في إعجاز القرآن. ص: 27.

25ـ أبو بكر العزاوي. اللغة والحجاج. ص: 76-77.

26ـ نفسه. مقدمة، ص: 8.

27ـ نفسه. ص: 27.

28ـ أبو بكر العزاوي. الخطاب والحجاج. ص: 9.

29ـ نفسه. ص: 28.

30ـ سورة يونس.55

31ـ أبو بكر العزاوي. اللغة والحجاج. ص: 58.

32ـ نفسه. ص: 58.

33ـ نفسه. ص: 58-59.

34ـ سورة يونس.66.

35ـ جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل. تحقيق وتعليق ودراسة: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض وفتحي عبد الرحمن وأحمد حجازي. مكتبة العبيكان، الرياض- السعودية، ج3، ط01؛ 1418هـ - 1998م، ص: 156.

36ـ سورة النساء.157- 158

37ـ الزمخشري. الكشاف. ج2، ص: 175.

*أيكم: قيل من صلب هو من أصحاب عيسى عليه السلام، وقيل هو منافق دل أصحابَه على سيدنا عيسى فألقي عليه شبهه فقتله أصحابه، واختلفوا إن كان هو فأين عيسى؟ وإن كان عيسى فأين صاحبهم؟ فهم غير متيقنين(ينظر: الكشاف.ج2، ص: 175).

38ـ الزمخشري. الكشاف. ج2، ص: 175.

39ـ قدور عمران. البعد التداولي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل "أطروحة دكتوراه(مخطوط)". ص: 165.

*﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ سورة آل عمران 55.

40ـ قدور عمران. البعد التداولي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل. ص: 166.

41ـ نفسه .ص: 166-167.

42ـ سورة الأعلى.14- 19.

43ـ الزمخشري. الكشاف. ج2، ص: 359.

44ـ أبو بكر العزاوي. اللغة والحجاج. ص: 61.

45ـ سورة الأنفال. 52- 54.

46ـ الزمخشري.الكشاف.ج2، ص: 591.

47ـ سورة المائدة.75.

48ـ مصطفى مسلم. مباحث في إعجاز القرآن. ص: 26.

49ـ الزمخشري.الكشاف.ج2، ص: 276- 277.

50ـ ينظر: نفسه. ص: 277.

51ـ سورة الإسراء.94- 96.

52ـ الزمخشري.الكشاف.ج3، ص: 533

*﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ البقرة/ 151

53ـ سورة الإسراء .90- 93.

*الخوارق: هي ما تم ذكره في الآيات السابقة، ولو تحققت ما آمنوا لقوله تعالى: ﴿ولقد كُذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين، وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ سورة الأنعام 34-.

54ـ مصطفى مسلم. مباحث في إعجاز القرآن. ص: 32.

55ـ سورة البقرة. 94- 96.

56ـ الزمخشري.الكشاف.ج1، ص: 298.

57ـ سورة الجمعة. 6- 8.

58ـ الزمخشري. الكشاف .ج6، ص: 112.

*أخرج المرعى: أنبته، فجعله بعد خضرته ورفيقه "غثاءً أحوى" درينا أسود، وتجوز أن يكون حالا من المرعى، أي أخرجه أحوى أسود من شدة الخضرة والري، فجعله غثاء بعد حويه (الكشاف، ص: 357).

59ـ سورة الأعلى. 1- 5.

60ـ الزمخشري. الكشاف. ج6، ص: 356.

61ـ أبو بكر العزاوي. الخطاب والحجاج. ص: 20- 21.

62ـ نفسه. ص: 22.

63ـ سورة البقرة. 258.

64ـ الزمخشري.الكشاف.ج1، ص: 488.

65ـ زكريا بشير إمام. أساليب الحجاج في القرآن الكريم نماذج من الحجج الاستنباطية. المركز القومي للإنتاج الإعلامي. أبريل 1995- ذو القعدة 1415هـ، ص: 9- 10.

66ـ علي جريشة. أدب الحوار والمناظرة. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ط01؛ 1410هـ – 1989م، ص: 25.

67ـ الزمخشري. الكشاف. ج1، 489.

68ـ نفسه. ص: 489.

69ـ نفسه. ص: 489.

70ـ سورة الأنبياء. 22.

71ـ سيد قطب .التصوير الفني في القرآن الكريم. دار الشروق، القاهرة – مصر، ط16؛ 1432هـ– 2002م، ص: 230.

72ـ نفسه .ص: 231.

73ـ الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. حققها وعلق عليها: محمد خلف الله ومحمد سلام زغلول. دار المعارف، مصر، ط03؛ 1976م، ص: 109.

74ـ سورة يس. 78 – 79.

*وقالوا اسم العصا نبعة، وقيل في المآرب: كانت شعبتين ومحجن، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن، وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين وإذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها، وإذا كان في البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل، وإذا قصر رشاؤه وصله بها، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه، وقيل كان فيها من المعجزات أنه كان يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوا، وتكونان شمعتين بالليل، وإذا ظهر عدو حاربت عنه، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت، وكان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه، ويركزها فينبع الماء، فإذا رفعها نضب، وكانت تقيه الهوام (الكشاف.ج4، ص: 75.

*وعن ابن عباس: انقلبت ثعبانا ذكرا يبتلع الصخر والشجر، فلما رآها تبتلع كل شيء خاف ونفر(الكشاف. ج4، ص: 76).إذن فمعنى حية ليس الأفعى، ولكن دبت الحياة في العصا فصارت ثعبانا لقوله تعالى: "فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين "سورة الشعراء. 32.

75ـ سورة طه. 17 – 21.

76ـ الزمخشري. الكشاف. ج4، ص: 74.

77ـ نفسه ص: 75.

78ـ سورة طه. 65 – 69.

79ـ مصطفى مسلم. مباحث في إعجاز القرآن. ص: 24 – 25.

80ـ سورة الأنبياء. 51 – 70.

81ـ الزمخشري. الكشاف. ج4، ص: 151.

82ـ سورة الأنبياء. 104.

83ـ سورة الأنبياء. 30.

84ـ الزمخشري. الكشاف. ج4، ص: 140.

85ـ سورة النمل. 61.

86ـ سورة الرحمن. 19 – 20.

87ـ سورة الفرقان. 53.

88ـ مصطفى مسلم. مباحث في إعجاز القرآن. ص: 206 – 207.

89ـ سورة الحجر. 14 – 15.

90ـ سورة الرحمن. 33 – 37.

91ـ الأنعام. 125.

92ـ مصطفى مسلم. مباحث في إعجاز القرآن. ص: 243.

93ـ نفسه. ص: 244

94ـ نفسه. ص: 244.

95ـ سورة الروم. 48.

96ـ مصطفى مسلم. مباحث في إعجاز القرآن. ص: 210.

97ـ سورة النساء. 56.

98ـ سورة الفجر. 6– 14.

99ـ الزمخشري. الكشاف. ج6، ص: 369.

100ـ نفسه. 369.

101ـ الفيل. 1 – 5.

102ـ الزمخشري. الكشاف.ج6، ص: 341.

103ـ سورة إبراهيم. 24 – 26.

*لمعرفة المقصود بالكلمتين ينظر: الكشاف، ج3، ص: 377 وما بعدها

104ـ سيد قطب .التصوير الفني في القرآن الكريم. ص: 79.

105ـ سورة العنكبوت. 41.

106ـ سورة التحريم. 10 – 12.

107ـ الزمخشري. الكشاف. ج6، ص: 164.

108ـ سورة الحج. 73.

109ـ الزمخشري. الكشاف.ج4، ص: 212.

110ـ نفسه. ص: 212.

111ـ سورة إبراهيم. 18.

112ـ الزمخشري. الكشاف. ج3، ص: 371.

113ـ سورة البقرة. 26. الزمخشري. الكشاف. ج1، 235.